الفصل الثالث

بواعث البكاء وصوره الفنية

- في الشعر الجاهلي -

- البكاء... عاطفة انسانية...
- البكاء... وغنائية الشعر...
- البكاء على الاطلال...
- الحزن على الموتى وبكاؤهم...
- بكاء المشيب...
- مكابدات انسانية... باعثة على البكاء

البكاء... عاطفة إنسانية

من الحقائق المسلم بها ان شعور الانسان منذ خلقه الله على وجه هذه الارض قد فطر على عاطفتي الفرح والحزن، تبعثه على الاحساس بهما مؤثرات لا حصر لها، فضلاً عن استحالة رصد كل ما يتمخض عنهما من انفعالات وردود افعال، او استقصاء ما يتفرع عنهما من مسميات أخر ذات صلة بالعاطفة الانسانية ونوازعها ولاسيما في دلالاتها ومعانيها التي يمكن ان تدرج تحت هاتين العاطفتين لاستغراقهما لها.وإزاء هذه المتاهة العظمى، كان لابد من تحديد مسارنا،واختيار ما يمكن أن نجد صداه ... من خلال لمحات ذات مدلول في عملية الابداع الشعري... وقد أرتأينا أن تكون مشاعر الحزن منطلقاً لنا، وظاهرة (البكاء) تعبيراً عنها، أو انعكاسا لها الى جانب تضمن (البكاء) دلالات تلك المشاعر حسبما يؤكده المعنى المعجمي للفظة، اذ نطالع في بعض المعجمات، مانصه: ((البكاء يقصر ويمد... فمن قصره ذهب به الى معنى الحزن، ومن مده ذهب به الى معنى الصوت))[١]. وقيل: ((اذا مددت اردت الصوت الذي يكون مع البكاء، وأذا قصرت أردت الدموع وخروجها))[٢]، ومثل هذا المعنى ورد في قول المتنخل الهذلي:

مابال عينيك دمعُها خضلُ

كما وهي سرِب الأحزان منبزلُ[٣]

وقالت الخنساء في البكاء الممدود:

اذا قَبحَ البكاءُ على قتيلِ

رأيت بكاءك الحسن الجميلا[٤]

وقيل ايضاً: ((البكاء بالفتح، كثرة البكاء))، قال الشاعر:

وأفرح عينيَّ تبكاؤه

واحدثُ في السمع مني صمم[٥]

وقالوا: ((باكيتُ فلاناً فبيكته، اذا كنت اكثر بكاء منه، وتباكى: تكلف البكاء، والبكئ: كثير البكاء))[٦].

البكاء... وغنائية الشعر

قد لا نجانب الصواب اذا قلنا ان الشعراء بعامة والجاهليين منهم بخاصة، قد بثوا في تضاعيف أبياتهم ومقطعاتهم وقصائدهم ومطولاتهم (بكائيات) عُدت إحدى قرائن الشعر الغنائي، الذي يكاد يغلب على الشعر الجاهلي وغيره ((من حيث أنه شعر ذاتي يصور نفسية الفرد[الشاعر]، وما تختلجه من عواطف وأحاسيس ويصوره مرحاً أوحزناَ))[٧]، الى جانب تصويره مشاعر مجتمعه وعواطفه واحاسيسه وتجاربه الحياتية، في حلوها ومرها اذ ((ليس الشعر الجاهلي كله شعراً ذاتياً يدور في احزان وافراح فردية يتقوقع فيها صاحبه... بل وجدناه يختلف عن ضروب الشعر الغنائي العالمي، فهو شعر موضوعي يرتبط فيه الشاعر بمصير القبيلة))[٨].

وان كان يشترك معه في ناحية ((أن الشعراء العرب انفسهم كانوا يغنون فيه... واقترن هذا الغناء عندهم بذكر الادوات الموسيقية))[٩]. ومن خلال استقرائنا المتواضع لطائفة من الدواوين والمختارات الشعرية الموثقة تبين لنا ان بكاء الشعراء يكاد ينحصر في نطاق بواعث أومؤثرات قد لاتخرج عن وقفة عند اعتاب أطلال دارسة لأحبة أو لأهل... أو فقد عزيز أثر قتل أو موت حتف أنفه، او ادبار شباب اواقبال شيخوخة، أو معاناة ارمضتها هذا التجربة الانسانية او تلك.

وقد كان (البكاء) اثرهذه البواعث يمثل علاقة خصوص من عموم لمشاعر الحزن المتمخضة عنها في البعد الفكري من جهة وأثرها –اي البواعث – في تشكيل القالب الفني من حيث التصوير ودقته وبراعته من جهة اخرى.

البكاء على الاطلال

تشغل لوحات الافتتاح الطللية – كما هو معروف – حيزاً واسعاً من المطولات أو القصائد الجاهلية، فضلاً عن كونها أبرز سمه فنية في البناء

المكتمل بلوحاته وموضوعاته الشعرية المتعددة،حتى طغت شهرتها علـــى بقيـــة الافتتاحيات الأخر، منها الشيب والطيف والشكوى والخمر وغيرها، وقد لا نغالي اذا قلنا ان هذا النوع من الافتتاح كان ومازال مالئ دنيا الشعر الجاهلي، وشاغل النقاد والدارسين (القدماء منهم والمحدثين) الذين ذهبوا في تفسير بواعثها مذاهب شتى بيد أن كلمتهم تكاد تتفق على تقرير أن الباعث الرئيسي في تـــشكيلها هـــو ((تذكر الحبيبة الظاعنة عن ديارها من فرط الصبابة)[١٠]. وقد اكد هذا المـــؤثر اكثر من شاعر – ولاسيما علقمة الفحل الذي أودعه في أوجز لفظ، وأوفى معنى اذ يقول:

هل علمتَ وما اســـتودعتَ مكتـــومُ

أم حبلها إذ تأتكَ اليـــومَ مـــصرومُ

أم هل كبيرٌ بكى لم يقـــضِ عَبرتـــهُ

إثر الأحبة يوم البينِ مـــشكـــَوم[١١]

ومن طبيعة الذكرى ان تثير الحزن او الأسى، وذلك منطلق قرره النابغـــة الجعدي في قوله:

تـــذكرتُ والـــذكرى تُهّـــيجُ للفتـــى

ومن حاجة المحزون أنْ يتذكرا[١٢]

وقد عبر الشعراء عن هذا الحزن في الاغلب الاعم، بالبكاء وذرف الدموع، أفراغاً لهذا الشعور، وتنفيساُ عنه، حتى غدت الوقفة الطللية مقرونة بالبكاء منهجاً فنياً تقليدياً موروثاً.

أو بكلمة أدق محاكاة لمن ((ابتدأ بذكر الـــديار والـــدمن والاثـــار وبكـــى وشكا))[١٣]. وذلك ما أعترف به امرؤ القيس في قوله:

عوجاً على الطلـــل المُحيـــل لأنّنـــا

نبكي الدّيار كما بكى ابن خـــذام[١٤]

ليغدو من خلال هذا الاعتراف ((أول من سهل الطريق اليه واعطاه النسق النهائي))[١٥]. ولا ادل على ذلك من أن ظاهرة البكاء نفسها تكاد تشكل ملمحاً مشتركاُ في المعاني التي أتى بها الشعراء في الوقفة الطللية...

وهو ماتمخض عنه استقراؤنا لطائفة غير قليلة من قصائد الشعراء المتقدمين والمتأخرين، المشهورين والمغمورين والمكثرين والمقلين.

وحسبنا في هذا الشأن أن نبتدي بديوان شعر امرئ القيس، ولا سيما معلقته بوصفها أو مراحل نظمه الشعر مع استقراء بقية قصائده الأخر وسنعمد الى انتقاء أبيات بعينها شكل فيه البكاء حالة وجدانية في اطار صورة فنية ونتجاوز غيرها، أو الاكتفاء بالاشارة اليها، اذا ما افتقدت الى جهد فني يشار اليه بالبنان!

خلاف بعض ابيات اللوحة نفسها، المتضمنة صورة فنية لمشاعر الحزن المقرونة بالبكاء. منها صورة الشاعر باكياً في إثر ارتحال الحبيبة التي ارمضها تذكره إياه كما في قوله:

كأني غُداةُ البينِ يومَ تحمَّلوا
لدى سَمُرات الحيُ ناقف ُحنظل[١٦]

فلم يكن استخدام الشاعر للفظتي ((سمرات الحي)) وهي الاشجار الشوكية في معناها المعجمي و((الحنظل)) وهو نبات مر المذاق في نطاق هذا المعنى ايضاً، وصفاً للمكان، او تشبيهاً ماجرى من دمعه لرحيل الحبيبة بما يسيل من عين ناقف الحنظل إنما قصد ذلك التلاؤم بين المكان ومشاعر الوداع – فأذا كانت الاشجار الشوكية تدل في معطيات رموزها على الجفاف والظمأ والجلد والحنظل في رمزه المعبر عن المرارة، والمذاق غيرالشهي فأنّ الوداع نفسه يتضمن في معانية المجازية كل ما يجعل النفس عطشى ومتجرعة مر العذاب لفراق الأحبة ومن هذا المنظور نطالع صورة اخرى مجتزاة من احد ابيات هذه اللوحة ايضاً قوامها هذه الكلمات المشحونة بعاطفة الحب:

ففاضتْ دموعُ العين منـــي صـــبابةً

على النحر حتى بلَ دمعيّ مِحملي[١٧]

فالمعنى الظاهري (المعجمي) للبيت لايشكل شيئاً ذا بال، وهو واضح فـــي ذهن القاصي والداني بيد أننا عندما ندقق النظر في لفظة (محملي) ضمن سياقها الشعري يتراءى لنا معنى أعمق من معناها المعجمي (حمالـــة الـــسيف)، أذ اراد الشاعر أن يومئ الى المتلقي أنه يبكي عشقاً ووجداً وهياماً، لاخوراً أو ضـــعفاً، فلم تكن غايته ابراز غزار الدموع ووصولها الى المحمل انما قصد السيف نفسه بوصفه رمزاً للشجاعة والفروسية والبطولة ليؤكد انه الفارس العاشـــق البـــاكي، وتلك هي القيمة الحقيقية للصورة في بعديها الفكري والفني.

ومن الصور التي تعاور الشعراء على رسمها في الوقفة الطلليـــة، تـــشبيه دموعهم بما يماثلها في الطبيعة من امطار منهمرة، أو مياه متدفقة من جداول،أو متسربة من مزادة، وذلك لتجسيم شدة حزنهم، وماذرفوه من دموع غزيزة حتـــى يؤثر في نفوس سامعيهم ويخلبوا البابهم، وهي صور تدل ايـــضاً علـــى مـــدى ماكانوا يودعونه في لوحاتهم من جهد فني.

ولعل أقدر الصور الشعرية في هذا الشأن مانطالعه في نونية امرئ القـــيس ولا سيما قولة:

لمن طللٌ ابصرته فـــشجاني كخطَّ زبور في عَسيبِ يمـــانِ

أمنْ ذكر نبهانيةٍ حلّ اهلهـــا بجزع الملا عيناك تبتـــدران

فدمعهما سكبّ وســـحَ دِيمـــة ورشَ وتو كـــاف وتـــنهملان

كأنهمـــا مزادتـــا متعجـــل فريّان لمّا تُـــسلقا بـــدهان[١٨]

فالصورة التي رسمها الشاعر تقوم على تداعيات – ان جاز التعبير– بـــدأ تشكلها برؤية (طلل) افضت الى حزن وجب صب دموع شبه تواليها بـــضروب الامطار تارة وبـــ(مزادتي ومتعجل) اللتين فرغ من عملهما ولم تدهن مواضـــع

خرزهما ليكون ذلك اكثر لسيلانهما تارة اخرى، فالقرينة التي جمعت بين صورة العاشق وصاحب المزادتين – هي الحزن المعبر عنه بسيلان الدموع من عيني الاول، وسيلان الماء من الاخر وهنا تكمن قيمة التشبيه الذي بدا اثره واضحاً في تصوير المعنى، وامكاناته الفائقة في التعبير عن موقف أو تجربة وجدانية، ويضم ديوان الشعر نونية اخرى تكاد تماثل الاولى في التصوير الفني، فضلاً عن اقتراب بقية صور الشعراء مما أبدعه امرؤ القيس، ومما يقيم القناعة بذلك أن النابغة الذبياني هو الاخر يصور لنا مشاعر نفسه الحزينة ازاء ما احدث الدهر أو ذرى في منازل الأحبة، التي كان لها اثرها في سيلان دموعة وانصبابه. كانصباب الماء من قربة بالية! وحسبنا مانطالعه في قوله:

أسائلها وقد سفحتْ دموعي

كأنَ مغيضُهنَ غروب شنٍ[١٩]

ويقال الشيء نفسه عن (بشر بن خازم) الذي هو الاخر يرسم صورة قوامها تشبيه دموعة الجارية بالماء الذي يسيل من القربة البالية، وذلك في قوله:

ودمعي يوم ذاك غرب شن

بجانب شهمة ماتستريح[٢٠]

اما علقمة الفحل فرسم صورة قوامها تشبيه عينيه من كثرة دموعهما لسيلانهما بما يفيض من الدلو العظيمة تسرع بها ناقة، اذ يقول:

فالعين مني كانْ غرب تحط به

دهماء حاركها بالقتب محزوم[٢١]

وأرتاى زهير بن ابي سلمى أن تكون صورة غزارة دموعه في غربي ناقة ينضح عليها قد قتلت بالعمل حتى ذلت في سقيها النخل كما في قوله:

كأن عيني في غربي مقتلة

من النواضح تسقي جنة سحقا

تمطو الرشا وتجري فـــي ثنايتهـــا

من المحالة ثقبـــاً رائـــداً قلقـــا[٢٢]

ويعمد الحطيئة – لدى تأملة رسوم الديار– الى تشبيه دموعه بسيلان الماء من جانب الدلو حين تنزع من البئر المملوءة، والماء يفيض من جوانبها، وينحدر رشاش ابيض نحو الارض؛ وقد اودع هذه الصورة في هذه الابيات:

أمن رســـم دار مربـــع ومـــصيف

لعينيك من مـــاء الـــشؤون وكيـــف

رشاش كغربي هـــاجري كلاهمـــا

لـــــه داجـــــن بـــــالكرتين عليـــــف

تذكرت فيها الجهل حتـــى تبـــادرت

دموعي وأصحابي علي وقـــوف[٢٣]

ويبدو ان بكاء الشعراء لم يقتصر على ذكرى الحبيبةحسب، انما تعداه الى الاهل ايضاً، وذلك مايمكن ان نصطلح على تسميته – الوقفة الطللية غير الغزلية التي نرى بواعثها في ((حنين الشاعر الى أهله وانتمائه الـــيهم، والتعبيـــر عـــن شعوره بالحرمان من الوطن المكاني... وسط رحلة لا تستقر، وتنتمي حتى غـــدا البكاء على الطلل بكاء على الحياة نفسها))[٢٤]، وذلك مانتأمله في الصور ة التي رسمها (عبيد بن الابرص) وقد شبه مدامعه التي لاتجف بـــ جدول يسقي مزارع مخروب، وهو يقف عند اعتاب أطلال الاهل وتذكره إياهم، قائلاً:

تذكرت اهلي الـــصالحين بملحـــوب

فقلبـــــي علـــــيهم جـــــد مغلـــــوب

تذكرتهم مـــا إنّ تجـــف مـــدامعي

كأن جدول يسقي مزارع مخروب[٢٥]

وعلى غرارها الصورة التي رسمها بشامه بن الغدير، التي ارمضتها وقفته الطللية، يفصح عنها تشبيه دموعه بمياه نهر فياض تحولت جداول تسقي الزرع، اذ يقول:

فوقفت في دار الجميع وقد
جالت شؤون الرأس بالدمع
كعروض فياض على فلج
تجري جداوله على الزرع[٢٦]

ولا تختلف صورة لبيد العامري كثيراً عن صورة نظرائه الشعراء فهو ايضاً يعمد الى ابراز غزارة دموعه بتشبيهها بمياه تسقي الزرع كما في هذه الابيات:

وقفت بهن حتى قال صحبي
جزعت وليس ذلك بالنوال
اذا اروا بها زرعاً وقضباً
أمالوها على خور طوال[٢٧]

وما يمكن ان نخلص إليه من ظاهرة بكاء الشعراء على اطلال الاحبة والاهل، أن التناظر والتماثل قائم في المعاني والتراكيب والتشبيهات والصور، غير أنه من جهة ثانية أتاح لهم التدقيق فيها ان يحلوها ويكشفوها أتم كشف وجلاء، الى جانب براعتهم في اعادتها وصوغها صوغاً جديداً، فكان كفيلاً بان يبعد الملل والسأم في نفوس سامعيهم.

الحزن على الموتى وبكاؤهم

اذا كان فراق الاهل والأحبة بسب ارتحالهم من ديار الى اخرى مدعاة الى الوقوف عند اعتاب رسومهم الدارسة، وتذكرهم والحنين اليهم وبكائهم... فإن الشعراء رثوا وبكوا أيضاً من فارق الحياة وطواه الموت (حتف أنفه) أو

مصروعاً في ساحة الوغى: ليعبروا من خلال ذلك بالبكاء عن حزنهم وشقائهم وتعاستهم بمصابهم الجلل هذا... ويبدو ان بكاءهم تضمن في تضاعيفه سخطهم من الدهر، بعدما نسب اليه الوثنيون ((مايكرهون من فرقة او موت))[٢٨]. وتلك حقيقة يبقى القرآن الكريم أصدق شاهد عليها، فقد جاء على لسان المشاركين في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾[٢٩]، فضلاً عن اشعارهم المفصحة عن هذا الزعم، [٣٠] اذ يقول ذو الاصبع العدواني:

اهلكنا الليل والنهار معاً

والدهر يعدو مصمماً جذعا[٣١]

كما غدا الدهر في زعمهم الداء والدواء أو العلة والمعلول، فمثلما أبكاهم، فقد بكوا عليه ايضاً، وذلك ما صرح به المرقش الاصغر في قوله:

نبكي على الدهر والدهر الذي

ابكاك فالدمع كالشن الهزيم[٣٢]

وما يهمنا في هذا المقام هو تتبع الصور الفنية التي شكل البكاء فيها بعداً فكرياً في رثاء الشعراء، ونواح الشواعر وندبهن، اذا اخذنا في الحسبان ان النسوة اشجى الناس قلوباً عند المصيبة، واشدهم جزعاً على هالك، لما ركب الله عز وجل في طبعهن من الخور وضعف العزيمة، وعلى شدة الجزع يبنى الرثاء))[٣٣]. وهو رثاء اقرب مايكون الى بكاء ونواح وندب ((وكن يصنعن ذلك على القبر وفي مجالس القبيلة والمواسم العظام))،[٣٤] وقد يستغرق ذلك اياماً أو سنوات معدودات وقد كان لمظاهر حزن النسوة وبكائهن ونواحهن اثرها في تحريض ابناء القبيلة وتوثيبهم على الانتقام والثأر من القاتلين ! ويمكن ان نعد الخنساء ابرز شاعرة: ((استوفت كل صور الرثاء وتقاليده الموروثة))[٣٥]، ولا سيما مراثيها في اخويها(معاوية وصخر) التي غلب عليها البكاء، في مطالع قصائدها بخاصة وفي تضاعيفها – بوجه عام– وذلك ما تمخض عن استقرائنا

لديوان الشاعرة، اذ كانت تستهل بعض افتتاحيات قصائدها بـ ((ياعين جودي))[٣٦]، اما بقيتها فكانت تتقاسمها لفظتا (البكاء والعين) في عبارات ذات اختلاف يسير بينها، وهي بحسب تعاقبها ((ياعين مالك، وما بال عينيك، أعين الا فابكي، بكت عيني، ابكي لصخر اهاج لك الدموع، ابكي عميد الابطحين، الا ياعين فأنهمري، قذى بعينيك، اعيني هلا تبكيان، ياعين فيضي، عين فابكي، الا ابكي على صخر، ياعين ابكي، الا ياعين ويحك، الا ما لعينيك لاتهجع، هريقي من دموعك، مابال عينيك))[٣٧].

وتبدو السمات المشتركة في بكائيات الخنساء انها تقوم على ابراز المعاني بصيغة مباشرة، مع اضفاء اللمحة الفنية المتشكلة في ــ الأغلب الاعم ــ باحدى ادوات التشبيه من ذلك تصويرها جريان الدمع من العِين بالماء الجاري يتخذ سبيله في مجراه، كما في قولها:

يا عين جودي بدمع منك مدرار

جهد العويل كماء الجدول الجاري[٣٨]

او تصويرها الدمع المسكوب من العين باللؤلؤ المنثور صفوفاً في سماط يرسل بريقاً:

يا عين جودي بدمع منك مسكوب

كلؤلؤ جال في الاسماط مثقوب[٣٩]

او تشبيه الدمع المنحدر على الخد بالدر المتدحرج:

يا عين جودي بدمع غير منزور

مثل الجمان على الخدين محدور[٤٠]

ويمكن ان تشكل من تلك المطالع ملامح لوحة فنية قد تصيح تسميتها بـ(لوحة البكاء والندب والنواح) ونعزو الى الخنساء الريادة في بلورتها من

الناحيتين الفكرية والفنية على السواء بعد ان غدت ظاهرة في معظم ما جادت به قريحتها الشعرية[٤١].

وعندما نلتفت الى مراثي الشعراء، تتأكد لناحقيقة ان ظاهرة البكاء في تضاعيفها تشكل استثناء، وذلك بسبب ان الرجل (الشاعر) كان يتجلد في مصابه،ويعبر عن احزانه بأساليب شتى من جهة، ومن جهة اخرى، ان رثاء الشعراء للفرسان القتلى، وصف بأنه في معظمه (تهديد للقاتل وعزم على الانتقام منه، اكثر مما هو بكاء على القتيل)[٤٢] بيد ان الشعراء لجأوا الى صيغة تعبيرية تفصح عن حزنهم ورغبتهم في البكاء بأسلوب غير مباشر من ذلك اعتماد بعضهم ظاهرة الحوار الشعري مع المرأة التي تبدو محرضة على البكاء نحو ما نطالعه في مرثية (دريد بن الصمة) الرائية لاخيه (عبد الله)، المتضمنة محاورة مع امرأتة، وهي تعرض عليه البكاء على اخيه، واجابته لها انه يستحق البكاء، وان كان قدجبل على الصبر مع تساؤله الى من يصرف البكاء، ايبكي اخاه او قتيل ابي بكر، وذلك ما نتأمله في هذين البيتين:

تقول الا تبكي اخاك وقد أرى

مكان البكا لكن بنيت على الصبر

فقلت أعبد الله أبكي أم الذي

له الجدث الاعلى قتيل ابي بكر[٤٣]

وفي محاورة اخرى، نجد سخرية الشاعر (حزاز بن عمرو) من بكاء أمرأته على البكر الشاب من الابل، جهلاً منها، وحضه إياها على البكاء بالدموع الغزار على الفرسان المصروعين، ليعبر من خلالها عن حزنة ازاءهم وبكائه الضمني عليهم فنطالع في هذا الشأن قوله:

تبكي على بكر شربت به

سفها تبكيها على بكر

هلا علـــى زيـــد الفـــوارس زيـــــ

ـــد اللات او هـــلاّ علـــى عمـــرو

تبكـــــين لارفـــــات دموعـــــك او

هلاّ على ســـلفي بنـــي نـــصر (٤٤)

ولعل تصوير الشاعر مظاهر حزن النسوة مقروناً بآهاتهن واناتهم وعـــويلهن ودموعهن، افراغ لما كان يجيش في نفسه من حزن، ورغبة في مشاركته عزائهن، ولولا الحياء الذي يحول دون ذلك فيكتفي بالتعبير عنها في فنه الشعري.

من ذلك مانطالعه في نونية المهلهل بن ربيعة التغلبي في رثا كليب، وقـــد احتوتها صورتان احداهما (بصرية)، تبدو فيها النسوة ممزقات ثيابهن، نـــاثرات شعورهن، لاطمات الخدود، والاخرى (سمعية) نتلمس من خلالها النواح والعويل والبكاء المنطلق من اجوافهن كما في هذه الابيات:

فخرجن حين ثوى كليب حسراً

مـــــــستيقنات بعـــــده بهـــــوان

فترى الكواعب كالظبـــاء عـــواطلاً

إذ حـــان مـــصرعه مـــن الاكفـــان

يخمشن من أدم الخـــدود حواســـرا

مـــن بعـــده ويعـــدن بالازمـــان

متـــسلبات نكـــدهن وقـــد روى

اجـــوافهن بحرقـــة وروانـــي(٤٥)

وقد صور لنا ان مصرعه ابكى في تعبير مجازي حتى ((بيض الصفائح)) و((القنا)) و((الخيل)) ولم يتمالك نفسه ازاء ذلك كله الا ان يبكيـــه هـــو ايـــضاً، ويشرك صارمه وسنانه في هذا البكاء ايضاً، اذ يقول:

فلأبكـــين عليـــه حتـــى لابكـــا

وليبكينـــه صـــارمي وســـناني[٤٦]

ونظيرهذه الصورة، مانطالعه في رائية(الربيع بن زياد العبسي) التي يرثي فيها(مالك بن زهير)، ولا سيما قوله:

من كان مـــسروراً بمقتـــل مالـــك

فليـــأت نـــسوتنا بوجـــه نهـــار

يجـــد النـــساء حواســـراً يندبنـــه

يلطمـــن اوجههـــن بالاســـحار

يضربن حر وجوههن علـــى فتـــى

عف الـــشمائل طيـــب الاخبـــار[٤٧]

ورائية لبيد العامري، التي هي الاخرى تصور لنـــا شـــعائر النـــسوة فـــي الحزن، كما في قوله:

فَلَـــمْ ار يومـــاً اكثـــر باكيـــاً

وحـــسناء عـــن طـــرف مجـــور

تبل خموش الوجـــه كـــل كريمـــة

عوان وبكر تحت قـــر مخـــدر[٤٨]

وفي بعض صور الرثاء يقترن البكاء باحتلاب صور الاستسقاء، ولا تفسر هذه لظاهرة من باب تشبيه الشعراء بانهمار الدموع بالامطـــار، للتعبيـــر عـــن مشاعر الحزن في اطار مادي محسوي فقط، انما تتضمن بعـــداً اســـطورياً، اذا اخذنا في الحسبان المعتقد الجاهلي الزاعم ان (الهة السماء او المطر) تـــشاطرهم الاحزان على مصرع كل ذي شأن، ولاسيما الابطال الذين كان ينظر اليهم، انهم من سلالة الالهة، او تجسيدات لقوى خارقة، وما اضفاء صفات التالية والتقـــديس عليهم، واقامة الشعائر والطقوس على قبورهم، الا دليل علـــى امـــتلاك البطـــل

صفات يرتفع بها عمن حوله من الناس الاعتياديين وتحوله رمزاً مقدساً تحف به الاساطير[٤٩] وهكذا يكون مطر السماء (حزناً وبكاء) في بعده المعنوي او الغيبي وظواهر الكسوف والخسوف وغيرها رد فعل لغضب الالهة... والصور التي رسمتها الخنساء في رثاء صخر قد تكون مستوفية لهذه المعتقدات التي تضرب بجذورها في اعماق الدهور الغابرة كما في قولها:

يا عين جودي بالدموع
على الفتى القَرْمِ الأَغَرْ
فالشمس كاسفة لمهلكة
ومـا اتسق القمر[٥٠]

وتكاد صور الاستسقاء مع صور البكاء تأخذ نمطاً تقليدياً عند اعتاب الاطلال والقبور، مع تناظر في التعابير المكررة، والتشبيهات المماثلة، في دلالة عميقة ابعد من الدلالة الحسية القريبة، لانها بمثابة الطقوس او الشعائر التي تصدر عن وحدة التفكير، ووحدة الحس، وعن روح المجتمع وقيمه الفنيه[٥١].

واكتفى بعض الشعراء في وصيته،، أن ينعت او يندب أو يؤبن أو يرثى وهي الفاظ اربعة – في استقراء احد الباحثين– مترادفة في معانيها الدالة على ((اعلان مشاعر الحزن والبكاء))[٥٢]، كما في وصية طرفة بن العبد، اذ يقول:

فإن مت فأنعيني بما أنا اهله
وشقي علي الجيب يا ابنة معبد[٥٣]

وهناك من الشعراء من قرن رثاءه لقومه بالبكاء أو بمعنى ادق كان البكاء هو لغة الرثاء ومفرداته، وصور الحزن المعنوي في ابعادها المحسوسة، وذلك مانتلمسه في بعض شعر امرئ القيس الذي كان ينشد من عينه ان تصب الدمع صباً لتريح قلباً مهموماً من صور مصرع ملوك كندة التي كانت باعثاً لذلك البكاء لا الرثاء فحسب اذ يقول:

الا يـــاعين بكـــي لـــي شـــنينا

وبكـــي لـــي الملـــوك الـــذاهبينا

ملوكاً من بني حجـــر بـــن عمـــرو

يـــــساقون العـــــشية يقتلونـــــا

فلـــم تغـــسل جمـــاجمهم بغـــسل

ولكـــــن بالـــــدماء مرملينـــــا

تظـــل الطيـــر عاكفـــة علـــيهم

وتنتـــزع الحواجـــب والعيونـــا[٥٤]

ونجد شعراء اخرين يدعون الناس الى البكاء وذرف الدموع عند موت او مصرع ذي شأن، أظهار لرزء المصيبة، وعظم الخطب كدعوة أوس بن حجر لدى رثائه فضالة بن كلدة اهل مجالس الشرب من الفتيان للبكاء، في قوله:

ليبكـــك الـــشرب والمدامـــة والـــــ

فتيـــان طـــراً وطـــامع طمعـــا[٥٥]

ونظير هذه الدعوة، قول لبيد في رثاء النعمان بن المنذر:

ليبك على النعمـــان شـــرب وقينـــة

ومختبطات كالـــسعالي أرامـــل[٥٦]

ولا نغفل موضوع (رثاء النفس) او (البكاء عليها)،لدى معاناة الشاعر مـــن وطأة الاحزان والهموم والاكتئاب، تارة أو الاحساس بدنو الاجل ومفارقة الحيـــاة تارة اخرى، ويعمد بعض الشعراء الى تصوير تخيلي للطقوس التي تمارس بعـــد موتهم، يتصدرها بكاء النساء ونوائحهن من ذلك ما نطالعه في رائيـــة (الافـــوه الاودي) التي رثا فيها نفسه قائلاً:

الا عللاني وأعلمـــا أننـــي غـــرو

وماخلت يشفيني الشقاق ولا الحـــذر

فنائحـــة تبكـــي وللنـــوح درســـه

وامر لها يبـــدو وامـــر لـــه يـــسر

ومنهن من شقق الخمـــش وجههـــا

مسلبة قد مس احـــشاءها العبـــر[٥٧]

ولم يكن الشاعر الجاهلي يهتم باظهار حزنه وجزعه، على فـــراق الـــدنيا، وانما كان يهتم بأظهار مكانته أو منزلته المفصح عنها حـــزن اهلـــه وعـــشيرته واصحابه وبكاؤهم عليه... كما يقول السموال:

ياليت شعري حـــين انـــدب هالكـــاً

مـــــاذا تـــــؤبنني بـــــه انـــــواحي

ايقلـــــن لاتبعـــــد فـــــرب كريهـــــةٍ

فرجتهـــــا بـــــشجاعة وســـــماح[٥٨]

بكاء المشيب...

كان الاحساس بادبار الشباب، واقبال الشيخوخة، وما سيتبعها من ضـــعف وسقم وتهافت، باعثاً على تفكير المرء بجريان الزمن، وتناقص الاعمار ! وقـــد ولد هذا الاحساس، وذلك التفكير شعوراً لدى (المشيب أو الداخل في حد الشيب) يغلب عليه الحزن والاسى، اثر وعي بمفارقتـــه (لهـــو الـــصبا، ومتـــع الحيـــاة وبهجتها)... وحين نمضي لادراك هذا الشعور ادراكاً حسياً، في نتـــاج بعـــض الشعراء، فسنجد ان تعبيرهم عنه يتمحور في صور فنيـــة ذات ابعـــاد نفـــسية، وقوامها كلمات مشحونه بمكنون النفس الانسانية، ومعاناتها وحـــسراتها ولهفتهـــا وهمومها، وتحدد نظرتهم (التشاؤمية) الى الكون والحياة والموت والناس والمرأة والكهولة في الاغلب الاعم وحسبنا ان تكون حالة (البكاء) احـــدى قـــرائن ذلـــك الحزن على الشباب والجزع من الشيب... بعد ان وضعنا نصب اعيننا الحقيقـــة التي تقول ((أن العرب مابكت على شيء مابكت على الشباب))[٥٩]، وأن كان هذا

البكاء يشكل استثناء، لدى الرجال بعامة لالتفاتهم الى افراغ احـزانهم بمظـاهر شتى، دون تصريح بالبكاء مباشرة ! ومن هنا فأننا سنظفر بتجـارب شـعورية بكائية –ان جاز التعبير– عند طائفة محدودة من الشعراء لعل اميـة بـن ابـي الصلت واحد من هولاء الذين عانو من اعياء الشيخوخة، وكابدوا الهموم وبكـوا فراق لهو لحياة، وقرنوا الموت بالهرم، اذ يقول:

باتت همـومي تـسري طوارقهـا

اكـف عينـي والـدمع سـابقها

اقترب الوعد والقلـوب الـى الـ

لهـو وحـب الحيـاة سـائقها

من لم يمت غبطـة يمـت هرمـاً

للموت كـأس والمـرء ذائقهـا[٦٠]

ويبدو ان الشيب الذ ي لاح في رأس هذا الشاعر وذاك كفيلاً لتأمله المأساوي لاثر الزمن في تحول المرأة عنه، واعراضها عن سمات الشيخوخة التي اسـرعت اليه وان ايقن ان بكاءه لا طائل منه لانه لا يرد حبيباً ولايجدي على صاحبه بخير، وهو شيخ كبير!! وذلك ما نتأمله في تجربة عبيد بن الابرص القائل:

بل مـا بكـاء الـشيخ فـي دمنـةٍ

وقـد عـلاه الوضـح الـشامل[٦١]

والاعشى وهو يقول:

مـا بكـاء الكبيـر بـالاطلال

وسـؤالي فهـل تـرد سـؤالي[٦٢]

ويبدو ان المشيب في صراع دائم مع النفس فهو تارة يعمـد الـى ايقـاظ عاطفة الحب والشوق والحنين الى ماضٍ يتخلله الحزن والبكاء، وتـارة اخـرى

يسخر من تشبثه بعهد الشباب الاول، وقد يجد في الجهل عذراً يتكـــئ عليـــه، او مسوغاً لمعاناته، ولنا ان نطالع مثل هذا التصور في قول بشر بن ابي حازم:

فلمـــا أدبـــروا ذرفـــت دمـــوعي

وجهل من ذوي الشيب البكـــاء[٦٣]

مكابدات انسانية باعثة على البكاء

ولم يقتصر البكاء على ما استعرضناه، اذ نقرأ نصوصاً اخـــرى تـــضمنت ابعادها الفكرية حالات حزن مقرونة ببكاء ايقضها الشعور النفسي الـــذي انتـــاب الشاعر في موقف آني اتي علي خاطره، او بكلمة اخرى لم يجد بداً من البكـــاء للتعبير عما يكابده، فها (علباء بن ارقم) يجهش بالبكاء لـــدى مفارقتـــه الحبيبـــة (تماضر)، والتحاقها بقومه، بعد ان تأججت في نفسه مشاعر الحنـــين والـــشوق واللهفة لرؤيتها واللقاء بها مجدداً، مجسماً لنا ذلك بأنهمار دموعه وهي تصب من عين كأنها كحلت بحب قرنفل أو سنبل، قائلاً:

حلـــت تماضـــر غربـــة فاحتلـــت

فلجـــأ وأهلـــك بـــاللوى فأنحلـــت

وكأنما فـــي العـــين حـــب قرنفـــل

أو سنبلاً كحلت بـــه فانهملـــت[٦٤]

وقد يرسم لنا الشاعر مكابدات الغير ومعاناتهم المجـــسمة بالبكـــاء وذرف الدموع، على نحو ما نطالعه في الصورة التي نقلها امرؤ القيس لمشاعر صلحبه المرافق له في رحلته الى (القيصر) المفعمـــة بـــالحنين والـــشوق الـــى الاهـــل والعشيرة، وقد أججها مفارقة لهم، وبعد دربه عنهم، كما في قوله:

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه

وايقـــن انـــا لاحقـــان بقيـــصر

فقلـــت لـــه لاتبـــك عينيـــك إنمـــا

تحاول ملكاً او نمـــوت فنعـــذرا[٦٥]

ونظير ذلك الصورة التي رسمها الشاعر (صخر بن عمرو بن الشريد) لامرأته (سليمى) التي لم تكن دموعها تجف على حاله الذي لا هو بالحي فيرجى ولا بالميت فينسى، فشق ذلك عليه، فقال فيها:

أرى ام صخر ماتجف دموعها

وملت سليمى مضجعي ومكاني

وماكنت اخشى ان اكون جنازة

عليك ومن يغتر بالحدثان

فأي امرئ ساوى بأم حليلة

فلآ عاش الا في شقا وهوان[٦٦]

وهذا (النمر بن تولب) ينقل مشاعر زوجته الحزينة المفصح عنها بكاؤها وجزعها من اسرافه واهلاكه ماله اثر تضيفه فتية، وعقره لهم اربع قلائص، وشرائه لهم زق خمر، وقد لامها على موقفها ذلك في قوله:

قامت تبكي أن سبأت لفتيةٍ

زقاً وجابية بعود مقطع

لاتجزعي ان منفساً اهلكته

واذا هلكت فعند ذلك فاجزعي[٦٧]

وما نود ان نخلص اليه ان البكاء افصاح عن العاطفة الانسانية المكنونة في اعماق النفس، وهو ايضاً احدى القرائن التي يتميز بها البشر عن غيرهم من الكائنات الحية.

ومما لاشك فيه ان البكاء لايحصل دون بواعث او مؤثرات تستجيب لها النفس الانسانية، ولا تتجسم الا في ذرف الدموع لتعبر عن حالة الحزن التي تتملك المرء في مواقف بعينها في الاغلب الاعم. ولما كان الشاعر انساناً مرهف الحس، ورقيق العاطفة، وذا خيال جامح، فقد غدا الاقدر في التعبير عما يكابده

من الام ومعاناة، وغدا حزنه وبكاؤه تتويجاً لها، لافي ابعادها الفكرية حسب، انما في صياغتها الفنية وصورها الشعرية مفصحة عن مدى ماكان يودعه قـــصيدته من جهد فني ذي حظوظ من الجمال الذي بخلب الالباب، او يترك في نفس متلقيه المتعة والفائدة والتأثير او الاستجابة او التعاطف.ولما شكلت هذه البكائيات – ان جازالتعبير– ظاهرة مطرودة وشبه مطردة في نتاج الشعراء، فقد شـــجعنا ذلـــك على ايلائها اهتماماً في هذا البحث، مع رجاء ان يكون قـــد اوفـــى حقهـــا – أي البكائيات – من الاستقصاء والتتبع في المحاور التي ارتأيناها.

هوامش البحث

(١) لسان العرب، لابن منظور، دار صادر – بيروت ١٩٥٦: بكي.

(٢) المصدر نفسه: بكى.

(٣) ديوان الهذليين، شعر المتنخل الهذلي، القاهرة، ١٩٦٥: ٣٢/٢.

(٤) ديوان الخنساء تحقيق كرم البستاني، دار صادر– بيروت ١٩٦٣: ص١١٩.

(٥) لسان العرب: بكي (والشعر دون عزو).

(٦) المصدر نفسه: بكى.

(٧) العصر الجاهلي: د. شوقي ضيف، دارالمعارف بمصر، ط العاشرة ١٩٨٢: ص١٩٠.

(٨) تاريخ الادب العربي: – قبل الاسلام– نوري القيسي وزميلاه، بغداد ١٩٧٩: ص٢٠٥.

(٩) العصر الجاهلي: ص١٩١.

(١٠) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق احمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر ١٩٨٢: ٧٤/١.

(١١) ديوان علقمة الفحل، تحقيق لطفي الصقال، ودرية الخطيب، حلب ١٩٦٩: ص٥٠.

(١٢) شعر النابغة الجعدي، تحقيق عبد العزيز رباح، دمشق ١٩٦٤: ص١٠.

(١٣) الشعر والشعراء: ١/ ٧٤.

(١٤) ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم: دار لمعارف بمصر ١٩٦٤/ ق١٥/١١٤.

(١٥) العصر الجاهلي: ص٢٦٠.

(١٦) ديوان امرئ القيس: ق١/ ص٩.

(١٧) المصدر نفسه: ق١/ص٩.

(١٨) المصدر نفسه: ق٨/ص٨٨.

(١٩) شعر النابغة الذبياني تحقيق محمد ابو الفضل ابـراهيم، مـصر ١٩٨٥ ٢٣/ ص١٢٥.

(٢٠) ديوان بشر بن ابي خازم، تحقيق عزة حـسن، دمـشق ١٩٦٠: ق١١/ ص٤٩.

(٢١) ديوان علقمة الفحل: ص٥٣.

(٢٢) شرح ديوان زهير بن ابي سلمى، دار الكتب، القاهرة. ١٩٥٠ ص٣٧-٣٨.

(٢٣) ديوان الحطيئة، تحقيق نعمان أمين طـه، القـاهرة ط الاولـى ١٩٨٧: ق٢٧/ص١٦٦.

(٢٤) تاريخ الادب العربي – قبل الاسلام –: ص١٦٨-١٦٩.

(٢٥) ديوان عبيد بن الابرص، تحقيق حسين نصار، مصر. ط الاولى ١٩٥٧: ق٨/ ص٢٤-٢٥.

(٢٦) شعر بشامة بن الغدير، جمع وتحقيق عبد القادر عبـد الجليـل، مجلـة المورد المجلد السادس، العدد الاول، بغداد ١٩٧١: ص١٢٦.

(٢٧) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق د. احسان عباس، الكويـت ١٩٦٢: ص٧٣ -٧٤.

(٢٨) الحياة والموت في الشعر الجاهلي، مصطفى عبد اللطيف جياووك، بغداد ١٩٧٧: ص٩١.

(٢٩) الجاثية: الآية ٢٤.

(٣٠) الحياة والموت في الشعر الجاهلي: ص٨٩.

(٣١) ديوان ذي الاصبع العدواني، تحقيق عبد الوهاب، العدواني ومحمد فائق الدليمي، الموصل ١٩٧٣: ق١٩/ص٥٥.

(٣٢) المفضليات، المفضل الضبي، تحقيق احمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون: مصر ١٩٦٤: ق٥٨/ ص٢٤٩.

(٣٣) العمدة/ ابن رشيق، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، بيروت، ط٤/ ١٩٧٢ ٢/ ص١٥٣.

(٣٤) العصر الجاهلي: ص٢٠٧.

(٣٥) المصدر نفسه: ص٢٠٧.

(٣٦) دراسات في الادب الجاهلي، د.عادل البياتي، المغرب- الدار البيضاء ١٩٨٦: ص١٧١.

(٣٧) ينظر ديوان الخنساء: ١٤، ٢٤، ٢١، ٣٠، ٣٥، ٦٣، ٦٥، ٦٧، ٦٨، ٧٥، ٧٨، ١٠٥، ١٠٩، ١١٣، ١٣٤.

(٣٨) ينظر المصدر نفسه: ٧، ١٣، ١٦، ٢٠، ٣١، ٣٤، ٣٨.
٤٣، ٤٥، ٥١، ٥٨، ٦١، ٨٠، ٨٩، ٩٣، ٩٨، ١٠٣، ١٠٦، ١١٠، ١١١، ١١٦، ١١٧، ١١٩، ١٢٠، ١٣٦، ١٣٩،

(٣٩) المصدر نفسه: ص٧٥.

(٤٠) المصدر نفسه: ص١٤.

(٤١) المصدر نفسه: ص٦٧.

(٤٢) الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الاسلام، بشرى الخطيب، بغداد ١٩٧٧: ص٣.

(٤٣) حماسة ابي تمام، شرح التبريزي، تحقيق محمد عبد القادر سعيد رؤوف د.ت ١/٣٤٠.

(٤٤) المصدر نفسه: ٤١٨/١.

(٤٥) المهلهل بن ربيعة التغلبي، حياته وشعره. نافع منجل، رسالة ماجستير، اداب المستنصرية، ١٩٨٦، ق٥٥/ ص٣٤٢.

(٤٦) المصدر نفسه: ق٥٥/ص٣٤٥.

(٤٧) حماسة ابي تمام، شرح التبريزي: ١/ ٤١٣.

(٤٨) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري: ص٥٢.

(٤٩) ينظر: الاسطورة في الشعر العربي – قبل الاسلام. د. احمد اسماعيل النعيمي، مصر ١٩٩٥:ص١٢٥ ومابعدها.

(٥٠) ديوان الخنساء: ص٦٣.

(٥١) ينظر: المطر في الشعر الجاهلي، انور ابو سويلم، بيروت١٩٨٧: ص١١٣ ومابعدها.

(٥٢) الرثاء في الشعر الجاهلي، وصدر الاسلام: ص٢٩.

(٥٣) ديوان طرفة بن العبد، تحقيق علي الجندي: ق٦٢/٤.

(٥٤) ديوان امرئ القيس: ق٣٧، ص٣٠٠.

(٥٥) ديوان أوس بن حجر، تحقيق محمد يوسف نجم،بيروت ١٩٦٠: ق٢٦ ص ٥٥.

(٥٦) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري: ص٢٥٧.

(٥٧) الطرائف الادبية، تحقيق عبد العزيز الميمنين، بيروت ١٩٣٧: ص١٢.

(٥٨) ديوان السموال بن عادياء: تحقيق عيسى سابا. بيروت: ص١٦.

(٥٩) المستطرف من كل مستظرف، الابشهيي، بيروت، د.ت:٢/ص٦.

(٦٠) امية بن ابي الصلت. حياته وشعره. دراسة وتحقيق بهجة عبد الغفور الحديثي، بغداد ١٩٧٥: ق٦٨/ ص٢٣٧.

(٦١) ديوان عبيد بن الابرص الاسدي: ق٢٩/ص٩٨.

(٦٢) ديوان الاعشى، تحقيق محمد محمد حسين، مصر ١٩٥١، ق١/ص١٠.

(٦٣) ديوان بشر بن ابي خازم الاسدي: ق١/ص٢.

(٦٤) الاصمعيات، الاصمعي، تحقيق احمد محمد شاكر، وعبد السلام هـــارون مصر، ط الرابعة ١٩٧٦: ق٥٦/ص١٦١.

(٦٥) ديوان امري القيس: ق٤/ ص٦٥-٦٦.

(٦٦) الاصمعيات: ق٤٧/ ص١٤٦.

(٦٧) شعر النمر بن تولب، صنعة د.نوري القيسي، بغداد ١٩٦٩١٠: ص٧٢.